

تقاليد الفن في البيان العربي

هذا هو المصدر الثالث الذي استمد منه البحث البلاغي ، إذا مضينا في تصنيف الدراسات القرآنية على نحو ما سبق . ونعني بهذا المصدر عددا من الكتب ألّفها أهل الأدب وعلماء البلاغة والنقد ، بدافع فني في المقام الأول ، وهو تقديم صورة للبيان العربي في مستوياته الرفيعة ، ووصف تقاليده الفنية التي جرى عليها سواء في الشعر أم في النثر ، منذ أقدم العصور . وعلى الرغم من اشتراكها في هذا الهدف لم تجر على نسق واحد في التأليف ، بل تباينت في ذلك تباينا كبيرا ، فبعضها نزع إلى عرض لكثير من النصوص الأدبية ، وذكر الأخبار والطرائف ، وبعضها الآخر يكاد يتمحّض لرصد الوجوه البلاغية ، وشرحها والتمثيل لها ، وبهذا لم يكن الانشغال بالقرآن تفسيرا لبعض آياته ودفاعا عنها ، أو كشفا لوجوه إعجازه البلاغي هدفا لأي منها كما كان الحال في المصدرين السابقين ، وإن كان سياق الحديث فيها جميعا لم يخل من الإشارة إليه أو الاستشهاد ببعض آياته .

وأول شخصية يشار إليها بالبنان في هذا الصدد هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) فهو الذي وضع اللبنة الأولى للبيان العربي بكتابه الموسوعي العظيم « البيان والتبيين » ، ولا غرو إذا وصفه بعض الباحثين والنقاد بأنه مؤسس هذا البيان لا لأنه « وصل بجهد الخالص إلى قاعدة بيانية بعينها » ، وإنما « لأنه جمع طائفة من النصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان العربي في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث ، وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي » (١١٥) .

(١١٥) الدكتور طه حسين ، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبدالقاهر (مقدمة كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر) بيروت . المكتبة العلمية . ص ٣ .